العنوان : **أسس المواطنة فى الشريعة الإسلامية .**

الناشر : **مجلة روح القوانين – كلية الحقوق – جامعة طنطا .**

المؤلف : **محمد علي جمال الدين .**

المجلد : **الثانى .**

العدد : **الثامن والثمانون .**

محكمة : **نعم .**

التاريخ الميلادى : **٢٠١٩ .**

الشهر : **أكتوبر .**

الصفحات : **٢ – ٧٤ .**

مواضيع : **أسس المواطنة فى الشريعة الإسلامية .**

© ٢٠١٩ مجلة روح القوانين – جميع الحقوق محفوظة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله وأستعين به وأستهديه وأستغفره، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله... (وبعد):

فإن قضية المواطنة من القضايا التي طرأت على الساحة الإسلامية اليوم، وكثُرت حولها الخلافات والمناقشات، ما بين مدَّع أنها من بنات أفكار الغرب ولم تعرف قبل ذلك في الإسلام، وما بين مدافع عن موقف الإسلام وأنها قضية قديمة عرفتها الحضارة الإسلامية وقننتها، وهي مسطورة ومدونة في كتب التراث الإسلامي، وليس الجديد فيها إلا هذا المسمى الطارئ.

وما بين هذا في ادعائه وهذا في دفاعه لا نجد اهتمامًا حقيقيًا بدراسة موقف الإسلام من المواطنة، سواء من الناحية التأصيلية النظرية، أم من الناحية الحضارية العملية، ومن هنا فقد استعر الخلاف والنقاش، وأتهم المسلمون، ولم يسلم الإسلام ذاته.

ومن هنا أيضًا، فقد أصبح لزامًا على الباحثين أن يشمروا لعمل جدي، يظهرون من خلاله القيم الإسلامية المثلى، والمواقف التاريخية الرفيعة في المنظور الإسلامي للمواطنة؛ يسكتون من خلال ذلك صوت المعتدي المتعالي، ويبرزون جلال المذهبية الإسلامية، وروعة حضارة الإسلام.

إن قضية المواطنة في الإسلام، ليست مجرد قضية إنسانية، مستمدة من القانون الطبيعي، كما يذهب الغرب وإنما هي قضية دينية في المقام الأول، مستمدة

من الأصول الشرعية، ومستندة إلى العقيدة الإسلامية، ومؤيدة بأخلاق الإسلام ومثله.

هذه المواطنة التي تعني أول ما تعني أن يكرم الإنسان فلا يهان، وأن تعرف قيمته فلا تهدر "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"(١). وأن الناس كل الناس أخوة من أصل واحد، لا يضرهم أي اختلاف مهما كان، فهذا الاختلاف في حقيقته سبيل للتعارف والتعاون، لا من أجل تمايز أو تفاضل: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"(٢).

هذه المواطنة- الإسلامية- ليست كلمات مسطورة ومدونة، ولا هي مجرد مبادئ تصعب على التطبيق والتنفيذ، وإنما هي حقيقة واقعية عاشتها الأمة الإسلامية، ومما يجعلها كذلك أنها ليست مجرد حقوق تعطى للإنسان ويطالب بها، وإنما هي قبل ذلك واجبات يتحملها ويلتزم بها.

والطبيعي أنه إذا أدى كل مواطن ما عليه من واجبات؛ فإنه بداهة يكون قد حصّل ماله من الحقوق؛ إذ إن الواجبات والحقوق مترابطان، فما هو حق لمواطن، هو في ذات الوقت واجب على آخر.

وإذا كانت المواطنة لا تعدو أن تكون أكثر من علاقة تبادلية بين الوطن والمواطن، الدولة والفرد، الراعي والرعية، هذه العلاقة تتمثل في منظومة من الحقوق والواجبات المتبادلة. فلكي تكون هذه المواطنة، أو تلك العلاقة، حقيقية

(١) الآية رقم(٧٠) من سورة الإسراء.
(٢) من الآية رقم(١٣) من سورة الحجرات.

وفاعلة؛ فإنها لابد أن تكون قائمة على أسس متينة وقواعد راسخة.

وفي الإسلام، أو بالأحرى في التفكير الإسلامي، فإن هذه الأسس والمبادئ التي يقوم عليها مبدأ المواطنة، تنطلق بداءً من عقيدة الإسلام وتشريعه، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بأخلاقه وآدابه، وبهذا فإنها تتميز بالثبات والديمومة من ناحية، وتأخذ قوة الشيء الذي ينزل منزلة المقدس من ناحية أخرى. فهي أمور لا توهب تفضلاً، ولا تستجدى تعاطفًا.

وهذا البحث جاء ليناقش هذه الأسس والمبادئ التي يقوم عليها مبدأ المواطنة، فقوة الشيء من قوة أسه وأصله، فإذا قوي الأساس قوي القائم عليه والعكس عكسًا.

أولاً: أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في طبيعة الموضوع الذي تتناوله، حيث تعد المواطنة من القضايا ذات الأبعاد السياسية والأمنية، التي تعبر عن معايير الانتماء، ومستوى المشاركة من قبل الأفراد في الحماية والذود عن الوطن، كما تعبر عن وعي الفرد بالحقوق والواجبات والنظر للآخر، والحرص على المصلحة الوطنية.

١- تأصيل المفاهيم والمحافظة على هوية الأمة:

يعتبر مفهوم المواطنة من أكثر المفاهيم التي انتشرت وذاعت في الفترة الأخيرة، ومع هذا الانتشار وهذا الذيوع إلا أنه يبقى غير واضح الدلالة والمعنى، لا في بيئته الغربية التي نشأ فيها، ولا في البيئة العربية التي استقبلته وترجمته إلى لغتها.

ومن العجيب أن نرى الباحثين والمفكرين يستخدمون المصطلح نفسه (المواطنة) ويقصدون به معاني مختلفة، ومرد هذا أن (المواطنة) لم تعالج كمفهوم

له دلالته ومعالمه الواضحة.

هذا عن مفهوم المواطنة على العموم، وإذا كانت المفاهيم لها دلالتها في تحديد هوية الأمة وخصوصيتها، فإننا يجب ألا ننجر وراء المصطلحات الوافدة دون تمحيص وروية، بل يجب على الأقل إذا لم يكن المفهوم نابعًا من الأمة ذاتها ألا تمضيه الأمة وتفعله إلا إذا ناسب لغتها وحضارتها وقيمها.

والقرآن الكريم من هذا المنطلق يمنع المسلمين من استخدام بعض المصطلحات التي تضر بالذاتية الإسلامية، أو تتنافى مع القيم الأخلاقية.

- التأصيل الشرعي لمبدأ المواطنة:

نحن في حاجة ماسة إلى تأصيل بعض القضايا الخاصة بموضوع المواطنة؛ مثل: الأسس والمبادئ التي تقوم عليها، وهل لها أساس إسلامي، أم هي مأخوذة- كما يدعي البعض- عن الفكر الغربي.

وبالتالي فهذا البحث يقصد أساسًا إلى تأصيل فكرة المواطنة، تأصيلاً إسلاميًا من خلال الأصول الإسلامية من ناحية، وتأصيلاً واقعيًا من خلال التاريخ النبوي والراشدي لها، واستنباط نظرية الإسلام من خلال ذلك.

٣- بيان محاسن الشريعة الإسلامية الغراء:

فمع التراجع الذي يشهده العالم الإسلامي اليوم في جميع مناحي الحياة، حسب الناس أن تخلف المسلمين دليل على رجعية الإسلام ذاته، حتى أصبح الإسلام متهمًا بشتى التهم، ومن بين هذه التهم التي يطلقها أعداؤه قاصدين، وأبناؤه غافلين، تلك الدعوة أن الإسلام دين لا يصلح لبناء دولة، ولا يحوي برنامجًا تسير عليه الحكومات. ومما يعتمدون عليه في دعواهم مسألة "المواطنة" وأن

الإسلام لم يقدم حلاً لهذه المسألة.

والحق أن الإسلام مع شموله وكماله وأنه دين ودولة، يقود الفرد كما يقود الأمة، وأن القرآن الكريم قد حوي بين دفتيه حلولاً لكل مشكلات الحياة، كذلك فإن عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده جاء تطبيقًا عمليًا للقرآن الكريم، إلا أن هذه الحلول وهذه المحاسن في حاجة إلى توضيح وبيان وعرض جذاب يتناسب مع هذا العصر وحاجاته.

فعلى سبيل المثال فمسألة المواطنة، فإنها على رغم تأصيلها الشرعي في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: "لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"(١) وقوله ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"(٢). والنماذج العملية الكثيرة في سيرة الخلفاء الراشدين ورحمتهم في معاملة أهل الذمة... فإنه يبقى حجب كثيفة بين هذه الحقائق ورؤيتها، سبب ذلك التشويهات الاستشراقية والاستعمارية التي أرادت حجب هذا النور عن العالم حتى يظهر الإسلام في صورة هزيلة مزرية.

٤- قلة الكتابة في هذا الموضوع وسد هذا النقص:

فالمكتبة الإسلامية تكاد تكون خاوية من مرجع يشفى غليل الباحث عن مفهوم المواطنة في المنظور الإسلامي والأسس الفكرية والعقدية لها، وواجبات المواطن وحقوقه، ومع كثرة التساؤلات حول رؤية الإسلام للمواطنة، وكيفية تطبيقها مما

(١) الآية رقم(٨) من سورة الممتحنة.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الخراج، باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (١٧٠/٣) (٣٠٥٢).

جعل الحكام وواضعي القوانين في البلاد الإسلامية، يلجئون إلى النظم الوضعية ليأخذوا عنها، فإن الكتابة في هذا الموضوع تصبح من الواجبات من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثانيًا: منهج البحث:

تبنت الدراسة عدة مناهج أساسية تتكامل فيما بينها لتحقيق أهداف هذا البحث وهي:

١- المنهج الاستدلالي والاستنباطي[١] لاستنباط الأسس التي يقوم عليها مبدأ المواطنة، والاستدلال على مختلف القضايا التي تضمنها البحث، بما يناسبها من أدلة نقلية وأخرى عقلية.

٢- المنهج التاريخي أو الاسترادي[٢] للوقوف على التطبيق العملي، للاستهداء به، بحيث يدعم الشق النظري من البحث ويؤكده.

---

(١) الاستدلال أو الاستنباط: هو البرهان الذي يبدأ من قضايا يسلم بها، ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة دون الالتجاء إلى التجربة؛ ومن ثم فإن المنهج الاستنباطي أو الاستدلالي: "والمنهج الذي يربط بين المقدمات والنتائج وبين الأشياء وعللها على أساس المنطق والتأمل الذهني، فهو بدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات. (د. عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، الطبعة الثانية، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧م، د. إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٩٨٣م، ص١٢).

(٢) المنهج الاسترادي أو التاريخي: "عبارة عن إعادة للماضي بواسطة جمع الأدلة وتقويمها، ومن ثم تمحيصها، وأخيرًا تأليفها؛ ليتم عرض الحقائق أولا عرضا صحيحًا في مدلولاتها وفي تأليفها، وحتى يتم التوصل حينئذ إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة". (د. صالح بن حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، الطبعة الرابعة، الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٦م، ص٢٨٢.

٣- المنهج المقارن: وذلك لبيان الفرق بين النظرة الإسلامية والغربية، أعرض لبعض المقارنات والمقاربات بين المنظورين الإسلامي والغربي، سواء كان من ناحية المصطلحات والمفاهيم أو الناحية النظرية، وكذلك من ناحية التاريخ الواقعي أو الناحية العملية، فبالضد تتميز الأشياء.

ثالثًا: معاني مفردات البحث:

بداية فغير خاف على أحد أن كلمة أسس ومبادئ مترادفتان أو يقتربان من ذلك.

فالأساس. كما في المعجم الوسيط. هو قاعدة البناء التي يقوم عليها، واصل كل شيء ومبدوء، ومنه أساس الفكرة وأساس البحث(١).

وأما المبدأ، فإن مبدأ الشيء: أوله ومادته التي يتكون منها، كالنواة مبدأ النخل، أو يتركب منها كالحروف مبدأ الكلام. ومبادئ العلم أو الخلق أو الدستور أو القانون: قواعده الأساسية التي يقوم عليها ولا يخرج عنها(٢).

وإن كانت إحدى الكلمتين تغني عن الأخرى في الدلالة اللغوية؛ إلا أن لكل كلمة منهما إيحاؤها الخاص في النفوس، فبينما توحي كلمة أسس المواطنة مجرد القواعد والركائز التي ترتكز عليها؛ فإن كلمة المبادئ توحي بأمر عملي أو خلقي؛ "فهي قواعد ومعايير عملية تبني عليها قيم الأعمال، ومنها كالقول: "فلان حريص على التقيد بمبادئه"(٣). وكالقول: فلان ذو مبدأ أو صاحب مبدأ.

وبهذا فإن مقصودنا من أسس ومبادئ المواطنة أنها: "القيم والقواعد

(١) ينظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٤٢.

(٣) ينظر: جميل صلبيا، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ٣٢٢/٢.

الأساسية التي يقوم عليها مبدأ المواطنة، وما يتضمنه من حقوق وواجبات".

خطة البحث:

تشتمل على مقدمة، وثمانية مباح، وخاتمة.

المقدمة: تشتمل على أهمية الموضوع، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

المبحث الأول: وحدة الإنسانية.

المطلب الأول: وحدة الأصل الإنساني.

المطلب الثاني: وحدة الأصل الفطري والغريزي.

المطلب الثالث: وحدة الهدف والمصير.

المطلب الرابع: وحدة العقيدة.

المطلب الخامس: الوحدة الإسلامية سبيل المساواة في الحقوق والواجبات.

المبحث الثاني: التعاون الإنساني والصلة الإنسانية.

المطلب الأول: المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية.

المطلب الثاني: التعاون الإنساني في ظل الوطن الواحد.

المبحث الثالث: تكريم الإسلام للإنسان.

المطلب الأول: المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية.

المطلب الثاني: الكرامة الإنسانية وأثرها على المواطنة.

المبحث الرابع: إقرار سنة الاختلاف بين الناس.

المطلب الأول: الاختلاف سنة حتمية.

المطلب الثاني: الاختلاف أساس المواطنة.

المبحث الخامس: المساواة بين الناس.

المطلب الأول: مفهوم المساواة.

المطلب الثاني: المساواة في الإسلام.

المطلب الثالث: المساواة بين المسلمين وغير المسلمين.

المبحث السادس: العدل الإنساني

المطلب الأول: مفهوم العدل في الإسلام.

المطلب الثاني: التسامح الديني ومظاهره.

المبحث السابع: عالمية رسالة الإسلام.

المبحث الثامن: السماحة الإسلامية.

المطلب الأول: مفهوم السماحة في الإسلام.

المطلب الثاني: التسامح الديني ومظاهره.

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية من التسامح الديني.

الخاتمة: وتشتمل على أبرز نتائج البحث.

قائمة المراجع.

الفهرس.

المبحث الأول

وحدة الإنسانية

من أهم الأسس التي يقوم عليها مبدأ المواطنة هو أساس وحدة الإنسانية، فالناس في المنظور الإسلامي، متساوون في الأصل، لا فضل لأحدهم على الآخر، يدل على ذلك قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"(١).

يقول الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: قوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى) هما آدم وحواء، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد، وكونه يجمعهم أب واحد وأم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب. وقيل: إن كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء. وقوله: (لِتَعَارَفُوا) أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعتري إلى غيره. والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذا الفائدة، لا للتفاخر بأنسابهم ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) أي: أن التفاضل بينكم إنما هو التقوى فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتبلس بها وأشرف وأفضل. فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب؛ فإن ذلك لا يوجب كرما، ولا يثبت شرفا، ولا يقتضي فضلا(٢).

فالإسلام يستوي فيه. بالنظر إلى عقيدته وشريعته، جميع بني الإنسان...دون النظر إلى ما بينهم من فروق شخصية، كذكورة وأنوثة، وبياض وسواد، وفروق

---

(١) من الآية رقم(١٣) من سورة الحجرات.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراسة من علم التفسير، بيروت، دار الفكر، ٦٧/٥.

اجتماعية كرئاسة ومرؤوسيه، وحاكمية ومحكومية، وغنى وفقر... [١].

ومن ثم تملك جميع الأجناس البشرية، وجميع الألوان وجميع اللغات أن تجتمع في حمى الإسلام، وفي ظل نظامه الاجتماعي، وهي تحس آصرة واحدة تربط بينها جميعًا. آصرة الإنسانية، التي لا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين شمالي وجنوبي، ولا بين شرقي وغربي، لأنهم جميعًا يلتقون عند الرابطة الإنسانية الكبرى[٢].

فإن الناس– وإن اختلفت ألسنتهم وألوانهم، وتباينت طبقاتهم ودرجاتهم– فروع لأصل واحد، أبناء لأب واحد، ولذلك يناديهم ربهم: (يا بني آدم) (ورد هذا النداء في القرآن خمس مرات، أربعًا في سورة الأعراف، ومرة في سورة يس). كما يناديهم بـ: (يا أيها الناس) أول سورة النساء والحج، وتكرر في القرآن مرارًا). فبينهم جميعًا رحم واشجة، وأخوة جامعة[٣].

فليس في الإسلام ما يدعو إلى اختلاف في المعاملة بسبب اختلاف الألوان والأجناس والأعراق فلا تفاوت بينهم إلا بالعمل الصالح، وهذا إنما يكون الحكم والمرد فيه إلى الله تعالى يوم القيامة: (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)"[٤]، (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)"[٥].

(١) ينظر: الإمام محمد شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) ينظر: الأستاذ سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، العاشرة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣م، ص٩٣.

(٣) ينظر: د. يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣م، ١٠١٩/٢.

(٤) من الآية رقم(٩٤) من سورة التوبة.

(٥) من الآية رقم(٤٨) من سورة المائدة.

المطلب الأول
وحدة الأصل الإنساني

فالناس ذكورًا وإناثًا، بيض وسود، عرب وعجم، مسلمون وغير مسلمين، أصل نشأتهم واحد، مردهم إلى أب واحد وهو آدم عليه السلام (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) "[1].

هذا النسب الواحد من شأنه أن يجعل الإنسان يتقي الله في معاملة أخيه الإنسان، ويصل رحمه فيه "هذه التقوى تجعل الإنسان لا يرتفع عن أصله الإنساني ولاسيما إذا أدرك أن أوله التراب (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ) وثانية من نطفة (ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ)، وأيضًا من شأن النسب الواحد أن يكبح جماح التفاخر والتعاظم: "إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن"[2].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، أنهم بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد، ليعطف بعضهم على بعض، ويرفض بعضهم على بعض. وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي

---

(١) الآية رقم(١) من سورة النساء.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب (٤/٣٣١) (٥١١٦)، مسند أحمد، (١٤/٣٤٩) (٨٧٣٥). والعبية: الكبر والنخوة، والجعلان: دويبة سوداء تعض (العظيم آيادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، ١٤/١٦.

عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق... بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به"(١).

والنبي ﷺ يخطب أمته في حجة الوداع: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى ... فليبلغ الشاهد الغائب"(٢).

كما أن من شأن النسب الواحد أن يزكي روح التعاون والتحاور والتفاهم بين أبناء هذا النسب، مهما كثر عددهم، واختلفت مشاربهم وأديانهم: (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"(٣).

فهي دعوة للرجوع إلى الأصل الواحد رغم البعد الذي بينهم وبينه، دعوة لتناسي الخلافات القلية والفكرية في ظل رابطة الأخوة الإنسانية.

"إن الإسلام بإرجاعه الإنسانية إلى أصل واحد قد قضى على أسباب التعصب والتعالي على الآخرين، حيث إن كليهما يوجد التمايز بين أفراد المجتمع الإنساني، ومن هنا يكون انتهاك الحقوق، لأن من يرى في نفسه أنه متميز عن غيره، سواء كان منشأ هذا التمايز إلى التعصب إلى لون، أو طبقة، أو عرق، فسوف يجعل لنفسه حقوقًا تزيد عن حقوق الآخرين، ومن ثم تكون هذه الزيادة انتقاصًا من حقوق الآخرين، وهكذا تنشأ الصراعات بين الناس، وتنحدر الإنسانية من المستوى الرفيع الذي أراده الله تعالى لها إلى شريعة الغاب، وبهذا فقد أرسى الإسلام القواعد

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠١٠م، ص١٦٣.

(٢) مسند الإمام أحمد (٤٧٤/٣٨) (٢٣٤٨٩).

(٣) من الآية رقم(١٣) من سورة الحجرات.

التي بها تتحقق إنسانية الإنسان، وأساسها المساواة في أصل النشأة وفي تكافؤ الفرص بين بني الإنسان"[١].

المطلب الثاني
وحدة الأصل الفطري والغريزي

فالناس بنوا آدم. كل بني آدم. مخلوقون على فطرة واحدة (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) "[٢].

هذه الفطرة هي الفطرة التي ولدوا عليها قبل أن تخرجهم التربية والنشأة عنها كما في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"[٣] ومع ذلك ورغم اختلاف التربية والنشأة، فإن هذه الفطرة تظل كامنة في نفوسهم، وإن شابتها بعض الشوائب. حتى إذا صفت من كدرها وعادات إلى طبيعتها، أصبح الناس أقرب إلى التوافق منهم إلى التخالف. وغلى الوفاق أقرب من الشقاق.

وإذا كان الناس متفقون في أصلهم الفطري؛ فهم كذلك متفقون في أصلهم الغريزي "يخضعون لقانون واحد من الطبائع والغرائز والشهوات، وإن اختلفت قوة وضعفًا من مجتمع لآخر... وإذا ترك لكل فرد حرية إشباع غريزته على حساب

---

(١) ينظر: د. عبد اللطيف الغامدي، حقوق الإنسان في الإسلام، الأولى، الرياض، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، ٢٠٠١م، ص٤٨.

(٢) من الآية رقم(٣٠) من سورة الروم.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٠٠/٢) (١٣٨٥)، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٠٤٧/٤) (٢٦٥٨). من حديث أبي هريرة.

الآخرين لتعطل قانون الحياة الاجتماعية، لذلك ترى أن الله سبحانه وتعالى قد نظم قانون هذه الغرائز بحيث يشبعها الإنسان بعيدًا عن الإضرار بالآخرين(١).

فالغريزة الإنسانية واحدة لا تختلف من إنسان إلى آخر، فهي واحدة من حيث علاقتها بالأرض، وحبها لمتع ومباهج الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها قال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)"(٢).

وهي واحدة أيضًا من حيث استعدادها للخير والشر: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) "(٣).

وهي واحدة من حيث استعدادها للصلاح والفساد: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" "(٤)، (٥).

هذه الوحدة الفطرية والغريزية تجعل الناس متقاربين في طبائعهم وسجاياهم أو من الممكن أن يتقاربوا إذا ما تهيأت الأوضاع لذلك مما يساعد على المعايشة بالحسنى ومن ثم مواطنة صالحة يعرف فيها الإنسان حقوقه وواجباته، وكيف يعامل أخاه الإنسان على أساس ذلك.

---

(١) ينظر: د. فريد يعقوب المفتاح، الوحدة الإنسانية مبرراتها ومنطلقاتها، ضمن مؤتمر إنسانية الحضارة الإسلامية، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ربيع الأول ١٤٢٦هـ، أبريل ٢٠٠٥م، ص٢٥٠.

(٢) الآية رقم(١٤) من سورة آل عمران.

(٣) الآية رقم(١٠) من سورة البلد.

(٤) الآيات رقم(٧-١٠) من سورة الشمس.

(٥) ينظر: د. عبد اللطيف الغامدي، حقوق الإنسان في الإسلام، ص٥٢.

المطلب الثالث
وحدة الهدف والمصير

فالنسا جميعًا مخلوقين لهدف واحد وساعون لغاية واحدة، أما هدفهم الذي ينبغي أن يعيشوا له ومن أجله فهو عبادة الله عز وجل (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)"[1].

وسواء عمل الناس لهدفهم هذا وعرفوه، أم جحدوه وأنكروه، فإنهم مطالبون ومحاسبون على تقصيرهم في ذلك.

هذا الهدف ينبثق منه هدف آخر وهو تعمير الأرض وخلافتها: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) "[2]، هذا التعمير يقتضي أول ما يقتضي اتفاق بين الناس، وأن يتعايشوا بسلم فيما بينهم مما يقوي رابطة العلاقة فيما بينهم، بعيدا عن اختلاف الدين والعنصر.

وإذا كان الهدف واحدًا أو ينبغي أن يكون كذلك، فإن المصير واحد، وهو أمر لا خيار فيه، فالإنسان يولد رغمًا عنه ويموت كذلك: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)"[3].

على أن حياة الإنسان في التصور الإسلامي لا تنتهي بانتهاء حياته، وإنما حياة تعقبه حياة أخرى، فيها يلقي الناس جزاء ما قدموا في حياتهم الأولى من خير أو شر: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

---

(١) الآية رقم(٥٦) من سورة الذاريات.
(٢) من الآية رقم(٦١) من سورة هود.
(٣) من الآية رقم(٣٤) من سورة الأعراف.

النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)"[١].

وإيمان الإنسان بهذا المصير كاف لأن يراقب نفسه ويقف على تصرفاته وما قدمت يداه، ومن ثم "فإنه عامل مهم، وسبيل أمثل في تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، وتعميق الخير والفضائل والقيم في أعماق النفس الإنسانية، مما ينعكس إيجابًا على جميع أنواع النشاط الإنساني فيتأتى من ذلك الأمن والطمأنينة... وبهذا فإن عقيدة البعث في الإسلام تعد من أكبر الحوافز للمسلم على الانصراف إلى فعل الخيرات واحترام حقوق الناس، وبذلك منع التفلت والتعصي منهج الحق، فيتأتى من ذلك عدم الجرأة على انتهاك الحقوق"[٢].

المطلب الرابع
وحدة العقيدة

فالناس على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وأجناسهم، بل وعصورهم مخاطبون بعقيدة واحدة، وما مبعث الأنبياء لأقوامهم إلا بهذه العقيدة فالأنبياء. كما في الحديث الشريف: "إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[٣] وهذا الدين الواحد لا ريب هو دين الإسلام الذي اصطفاه الله لجميع الأقوام ووصى به إبراهيم بنيه: "وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ

(١) الآية رقم (١٨٥) من سورة آل عمران.

(٢) ينظر: د. عبد اللطيف الغامدي، حقوق الإنسان في الإسلام، المرجع السابق، ص٥٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله (واذكر في الكتاب مريم)، (١٦٧/٤) (٣٤٤٣). وقوله: (شتى) مختلفة ومتعددة. (دينهم واحد) هو دين التوحيد وهذا يفيد أن النسب الحقيقي هو نسب العقيدة والإيمان وبه يكون التفاضل لا بالآباء. من تعليق: مصطفى البغا على صحيح البخاري.

إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ"[١]. وهو نفس الدين الذي ورثه عنه خاتم النبيين محمد ﷺ "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ""[٢]، (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) "[٣].

هذه العقيدة. عقيدة الرب الواحد. ميثاق مأخوذ على بني آدم. كل بني آدم. وهم في عالم الذر قبل أن يخلقوا: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" [٤]. فإذا ما خرجوا إلى هذه الدنيا وجدوا أنفسهم مفطورين ومجبولين عليها: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" "[٥].

وسواء التزم الناس بهذه العقيدة وآمنوا بها، أم فارقوها وجحدوها فإنهم مخاطبون بها ومطالبون بها. والقرآن الكريم لا يوجه خطابه وتكاليفه وأوامره ونواهيه إلى المؤمنين فقط، وإنما هو خطاب للإنسانية جمعاء، مؤمنها وكافرها، عربها وعجمها، أبيضها وأسودها.

هذا الخطاب العام يجعل أمام المسلمين مهمة قيادة البشرية إلى هدي السماء،

---

(١) الآية رقم(١٣٢) من سورة البقرة.

(٢) الآية رقم(١٢٣) من سورة النحل.

(٣) الآية رقم(١٣) من سورة الشورى

(٤) الآية رقم(١٧٢٣) من سورة الأعراف.

(٥) الآية رقم(٣٠) من سورة الروم.

لكن ضمن دائرة الإنسانية التي تحترم الآخر وتقدره وتعطيه حقه.

هذا الخطاب الرباني العام هو "أساس ظاهر لتكريم الإنسان في الأرض وفي ظل هذا التكريم تكون الرحمة العامة، ويكون التسامح العام بين جميع الناس، وهذه الرحمة وهذا التسامح نابع من أساس هذا الدين طبق في واقع الحياة الإسلامية فكرا وممارسة بعيدا عن الترف الفكري والشعارات الجوفاء والتطبيق الانتقائي، كيف لا وصاحب الرسالة الخاتمة صلوات الله وسلامة عليه هو الرحمة المهداة، والنعمة المزجاة كما أخبر جل شأنه بذلك: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" "(١).

"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ"(٢)،(٣).

المطلب الخامس
الوحدة الإسلامية سبيل المساواة في الحقوق والواجبات

هذه الوحدة الإنسانية الجامعة لوحدة النشأة والهدف، والعقيدة والمصير، تفتح بابا واسعًا لأخوة صادقة عنوانها الحب والبر، والإقساط والمساواة، وهذه أخوة لا يعكر صفوها اختلاف مهما اتسع مداه، بل إننا نلاحظ أن الله تعالى وهو بصدد ذكر خلاف أقوام الأنبياء عليهم السلام لهم وتكذيبهم في نبوئتهم، يجعل الخلاف غير مؤثر على رابطة الأخوة الإنسانية؛ فعند تناول القرآن لقصة نوح عليه السلام، مع قومه يذكر: إكَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ"(٤).

(١) الآية رقم(١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية رقم(١٥٩) من سورة آل عمران.

(٣) ينظر: د. عبد اللطيف الغامدي، حقوق الإنسان في الإسلام، ص٥٩.

(٤) الآيتان رقم(١٠٥-١٠٦) من سورة الشعراء.

وفي قصة هود عليه السلام مع قومه "كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ""[1].

هذه الأخوة تمحو فكرة التفاوت والطبقية، فلا عنصرية ولا لونية.

وتقضي على "مظاهر التفرقة التي اخترعها الإنسان وجعل بها من نفسه طبقات: السادة والأراذل، الأغنياء والفقراء، الألوان والعنصرية، الغربية والشرقية[2] فالناس متساوون في الحقوق والواجبات لا فضل لأحدهم على الآخر في ذلك.

"وإذا كانت الفروق الشخصية في نظر الإسلام بمنأى عن محيط الوحدة، وكان العدل شعارها الدال عليها، وسورها المحدد لها، لزم أن تكون تلك الفوارق بمنأى كذلك عن محيط العدل، ويستوي فيه القوي والضعيف، والغني والفقير، والقريب والبعيد، والمسلم وغير المسلم:بدليل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ""[3].، وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" "[4].

(١) الآيتان رقم(١٢٣-١٢٤) من سورة الشعراء.

(٢) ينظر: الشيخ: محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٥٢.

(٣) من الآية رقم(١٣٥) من سورة النساء.

(٤) من الآية رقم(٨) من سورة المائدة.

المبحث الثاني

التعاون الإنساني والصلة الإنسانية

تقسيم:

تم تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين على النحو الآتي بيانه:

المطلب الأول: التعاون الإنساني قرين الوحدة الإنسانية.

المطلب الثاني: التعاون الإنساني في ظل الوطن الواحد.

المطلب الأول
التعاون الإنساني قرين الوحدة الإنسانية

إن الوحدة الإنسانية التي أقرها الإسلام صراحة، يقتضيها تعاون وصلة حقيقيين بين هؤلاء الأخوة، إذ ليس ثمة معنى للأخوة من غير هذا التعاون. كما أنه نتيجة طبيعية لعملية التعارف بين الناس: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: ١٣). إذ لا معنى أن يتوقف هذا التعارف على معرفة الأشخاص والأنساب دون تعاون حقيقي بينهم.

هذا التعاون الإنساني وهذه الصلة غير مشروطان بشكل المتعاونين وأجناسهم، فالاختلاف لا يعكر صفو التعاون والصلة، وإنما هو فقط يتوقف عند دائرتي البر والتقوى ويجتنب دائرتي الإثم والعدوان: "وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة: ٢).

هذا الأمر القرآني بالتعاون على البر والتقوى، يأتي رديف الكلام على وجوب العدل بين المتباغضين: "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن

تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى" (المائدة: ٢). فالبغض والاختلاف لا يقفان كحجر عثرة أمام التعاون الإنساني في سبيل الخير.

إذن فالتعاون الإنساني ليس فقط بين المتشاكلين، وإنما هو تعاون عام لا يعرف الخلاف في النوع أو العرق أو اللغة أو حتى في الدين، وإنما هو تعاون بين الإنسانية كلها وفي حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا" قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: "إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة"[١].

والتعاون نوعان: معنوي يبذل النصح والإعانة بالرأي وغير ذلك، ومادي ببذل المال وغيره من الماديات.

وقد ضرب النبي ﷺ في كلا نوعي التعاون أفضل مثال وأصدقه فمن التعاون المعنوي ما كان بينه وبين قريش قبل البعثة في حلف الفضول، وكانت قريش قد تحالفت فيه على نصرة الضعيف والمظلوم والنبي ﷺ يرحب بمثل هذا النوع من الحلاف حتى بعد الإسلام فقال: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلفًا، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت"[٢].

وفي صلح الحديبية كان ﷺ حريصًا على إعلاء قيمة التعاون بين الفرقاء مادام هذا التعاون على بر وتقوى. فبعد أن صدته قريش عن البيت الحرام الذي جاءه معتمرًا أعلن ﷺ صدق عزمه على التعاون معهم على تعظيم حرمات الله فقال: "والذي

(١) سنن النسائي، كتاب القضاء، باب حكم الحاكم في داره (٥/٤١٤)، (٥٩٢٨)، المستدرك على الصحيحين (٤/١٨٥) (٧٣١٠).
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/٢٦٦.

نفسي بيده، لا يسألوني حطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"[١]. فكان هذا الفعل تفسيرًا عمليًا لقوله تعالى: "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى" (المائدة: ٢).

وأما التعاون المادي، فإنه أصابت قريش مجاعة وقطع العرب عنهم الميرة حتى أكلوا العظام المحرقة والجيفة والكلاب والميتة والجلود، ذهب وفد منهم وعلى رأسهم أبو سفيان فقالوا: يا محمد إنك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، فدعا لهم رسول الله ﷺ وبعث إليهم بطعام رقة عليهم، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم مازالوا مشركين[٢].

والنبي ﷺ يجيز لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها صلة أمها المشركة عندما قدمت إليها من مكة في وقت هدنة الحديبية اقتداء بقوله تعالى: "لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة: ٨).

بل إن العلماء قد ذهبوا إلى جواز صلة غير المسلم بالصدقة إذا كان محتاجًا. قال الجصاص في قوله (أن تبروهم وتقسطوا إليهم): أباح برهم وإن كانوا مشركين؛ والصدقات من البر، فاقتضى جواز دفع الصدقات إليهم[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (١٩٣/٣) (٢٧٣١).

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٩٥/١٠.

(٣) أحكام القرآن، مرجع سابق، ١٧٩/٢.

المطلب الثاني
التعاون الإنساني في ظل الوطن الواحد

إذا كان التعاون الإنساني العام ضروري وطبيعي ومقبول مع اختلاف أجناس الناس ولغاتهم وأوطانهم وأديانهم، فهو أكثر إلحاحًا وضرورة منه في الوطن الواحد. إذ الأصل أن يتعاون جميع القاطنين على أرض الوطن مهما اختلفت مشاربهم وأغراضهم على الزود عن صاحبه ورد العداء عنه.

ثم إن هؤلاء المقيمين على أرض واحدة، يشتركون جميعًا في خيراتها ويتشاركون في تحمل لأوائها. هذه الشركة تدفعهم دفعًا إلى التعاون والتواصل فيما بينهم.

والنبي ﷺ يجعل خصوصية لتعاون أصحاب الوطن الواحد، فعندما نزل المدينة المنورة وضع نوعين من التعاون: التعاون الأكبر وهو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حتى صاروا "توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(١).

وتنص وثيقة التعاون بينهم على: "إنهم أمة واحدة من دون الناس: المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين... وإن المؤمنين لا يتركون مغرمًا. أي المثقل بالدين. بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل... وأن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغي منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم".

---

(١) الحديث في البخاري ومسلم وسبق تخريجه.

فالأمة المسلمة متكافلة متضامنة في حقوقها ومصالحها وأنفسها وأموالها، فمن أضاع مال غيره فكأنما أضاع مال نفس، أو أضاع مال المجتمع كله، ومن اعتدى على نفس أخيه بالقتل فكأنما قتل نفسه، أو اعتدى على الجماعة كلها، كما جاء في الآية الأخرى: "أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا" (المائدة: ٣٢).

أما غير التعاون مع غير المسلمين، التعاون الأصغر، وهو النوع الثاني من نوعي التعاون التي أسس النبي ﷺ مدينته الفاضلة عليها. فقد نصت الوثيقة على: ",أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم... وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين".

وهكذا كان التعاون بشقيه: المعنوي والمادي أساس قيام دولة النبي ﷺ ومدينته التي لم تتكرر في التاريخ حتى اليوم، ولولا أن هذا التعاون مسطور في الكتب، وشهد به القاصي والداني، والعدو والصديق؛ لما صدقه أحد أو استطاع أن يتخيله.

وهذا هو التعاون الذي تقوم عليه المواطنة الصالحة، فالمواطنة لا تتوقف فقط على مجرد المعايشة السلمية بين أبناء الوطن الواحد واعتراف كل واحد منهم بالآخر ولا تتوقف أيضًا على مجرد إعطاء الحقوق وأخذ الواجبات بصورة ديناميكية شبه آلية، وغنما هي تعاون إنساني كامل، وصلة إنسانية وثيقة.

المبحث الثالث

تكريم الإسلام للإنسان

الإنسان في الإسلام كائن مكرم: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ" (الإسراء: ٧٠)، هذا التكريم تفضيل من الله لبني آدم وتشريف لهم لا من أجل عمل عملوه ولا سابق فضل تقدموا به. فالإنسان في الإسلام، ليس كائنًا مميزًا فحسب عن باقي الكائنات، سواء كان ذلك التميز بالضحك، أو الكلام، أو العقل، بل إن أصل التمييز هو تلك النفخة من روح الله التي حظي بها الإنسان: "ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ" (السجدة: ٩). "وهذه الخصيصة المميزة هي التي استدعت سجود الملائكة، إعلانا واعترافًا بهذا التميز المقتضى سجود أشرف المخلوقات وأطهرها عندئذ"(١).

فكان تكريم الله له بذلك أصل سموه وتفرده، جمع بها الإنسان بين الروح والطين، فأي اهتمام بجانب دون الآخر يأتي على الإنسان ويهلكه؛ ومن هنا جاء الإسلام ليهتم بالجانبين معًا يعطي كل جانب حقوقه ومتطلباته.

فالإنسان الذي سجدت له الملائكة الأطهار هو الكائن الذي كرم بخلافة الله في الأرض: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة: ٣٠)، وكرمه بأدوات الخلافة فخلقه في أحسن تقويم: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين: ٤)، فليس لله تعالى خلق هو أحسن من الإنسان: "فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (المؤمنون: ١٤)، وكرمه وشرفه بالعلم: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا" (البقرة: ٣١)، "عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق:٥)، وبالتميز "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"(البلد: ١٠)،

(١) د. عمارة نجيب، المنهج العلمي وتطبيقاته في الإسلام، الأولى، الرياض، مكتبة المعارف، ص١١٢.

فعرف سبيل الخير والشر وسخر الكون لخدمته: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" (الإسراء: ٧٠)، "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ" (الأعراف:١٠)، "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ" (لقمان:٢٠)، وأرسل له رسلا من جنسه يذكرون ويعظون: "رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ" (النساء: ١٦٥).

"وقد جاء الإسلام ليؤكد على أصالة هذه الكرامة، ويرسخ في الإنسان إحساسه بكرامته، ويقوي تمسكه بها، وصونه لها، وزوده عنها، لأنها جوهر إنسانيته، ولب بشريته، وأس ذاتيته، لقد راعت المبادئ الإسلامية في الإنسان أنه أكرم الخلق أجمعين، وأنه يحمل الأمانة العظمى، وأنه مستخلف عن الله سبحانه وتعالى في الأرض، ليعمرها، وليقيم الموازين بالقسط، وليعبد الله وحده لا يشرك به أحدا، فكان الإسلام باعثًا للكرامة الإنسانية، وحافظًا لها، بما جاء به من مبادئ سامية تصون للإنسان حرمته، وترعى كرامته، وتنزله المنزلة التي أنزله الله إياها مكرمًا مكفول الحقوق جميعًا"(١).

المطلب الأول
المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية

يتسم المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية بخاصيتي: الشمول والعموم، فيكتسب بذلك عمقًا ورحابة وامتدادًا في الزمان والمكان. ولعل من دقائق المعاني التي ينبغي أن نفطن إليها وتنتبه لها، أن آية التكريم من سورة الإسراء جاءت في

(١) د. عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، الأولى، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨، ص١٢٣ بتصرف يسير.

صيغة العموم، فالآية تشير إلى تكريم الله لبني آدم، وليس لجماعة المؤمنين، أو لفئة دون غيرها من الناس، فالتكريم هنا، هو تكريم مطلق المعنى، يشمل البشر كافة في الماضي والحاضر والمستقبل، ويمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها(١).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية ليست كرامة مفردة، ولكنها كرامة مثلثة: كرامة هي عصمة وحماية. وكرامة هي عزة وسيادة، وكرامة هي استحقاق وجدارة... كرامة يشغلها الإنسان من طبيعته: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ" (الإسراء: ٧٠)، وكرامة تتغذى من عقيدته: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ" (المنافقون: ٨)، وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته: "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ" (الأنعام: ١٣٢)، "وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ"(هود: ٣).

أوسع هذه الكرامات وأعمها وأقدمها وأدومها، تلك الكرامة الأولى، التي ينالها الفرد منذ ولادته، بل منذ تكوينه جنينًا في بطن أمه... كرامة لم يؤد لها ثمنا ماديًا ولا معنويًا. ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته، والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين في شريعة السماء.

أما عن حقيقة الكرامة فهي قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة. هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر: ذكرًا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًا، فقيرًا أو غنيًا، من أي ملة أو نحلة فرضت... ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك، وعرضه أن ينتهك، وماله أن يغتصب، ومسكنه أن يقتحم، ونسبه أن يبدل، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه، وضميره أن يتحكم فيه قسرًا، وتعطل حريته خداعًا ومكرًا..

(١) د. عبد العزيز التويجري: المرجع السابق، ص١٢٦.

كل إنسان له في الإسلام قدسية الإنسان، إنه في حمى محمي، وفي حرم محرم... ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه، وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه، بارتكاب جريمته لا يفقد حماية القانون كلها، لأن جنايته ستقدر بقدرها، ولأن عقوبته لن تجاوز حدها، فن نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو، فلن تنزع عنه الحجب الأخرى.

بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه، كما يحمي أبناءه وأولياءه... إنه يحمي أعداءه في حياتهم ويحميهم بعد موتهم، يحميهم في حياتهم، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان، ويحميهم في ميدان القتال نفسه، إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال. ثم يحميهم بعد موتهم، إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل... ولم لا؟ أليسوا أناس؟ فلهم إذا كرامة الإنسان..

هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها، هي الأساس الذي تقوم عليها العلاقات بين بني آدم(١).

المطلب الثاني

الكرامة الإنسانية وأثرها على المواطنة

فالكرامة الإنسانية تعم الإنسانية كلها فلا تكاد تفرق بين إنسان وآخر مهما كان الاختلاف بينهما، فالناس أكفاء لا فضيلة. في الدنيا. لأحدهم على الآخر، ولا يحق لأحد أن يرى نفسه أعلى قدرًا وأرفع منزلاً من غيره، كما أنه لا يليق به أن يرى نفسه أدون من غيره أو أقل شأنًا من جهة الكرامة، فالتعدي على هذه الكرامة، سواء من قبل الغير أو من قبل النفس اعتداء جسيم وجرم خطير.

---

(١) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، الرابعة، الكويت، دار القلم، ١٩٩٤م، ص٣٣- ٣٤.

فالقرآن الكريم يجعل الاعتداء على كرامة الغير جريمة كبرى وكأنها اعتداء على النفس الإنسانية عمومًا: "مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا"(المائدة: ٣٢). فالآية تنذر من يتعدى على حرمة الفرد وكرامته، فانتهاك حرمة الفرد الواحد انتهاك لحرمة الجميع.

أما تعدي الإنسان على كرامة نفسه وتهاونه في هذا فهو معدود من ظلم الإنسان لنفسه وهو محاسب ومؤاخذ على ذلك وقد عنف الله قومًا أهدروا كرامتهم: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا" (النساء: ٩٧).

هذه الكرامة والتي لا تعرف التفرقة والاختلاف هي سبيل المواطنة الصالحة والمعايشة الفاضلة.

وهي الطريق لأن يعرف الإنسان حقوق غيره ويقدرها بغض النظر عن الاختلاف بينهم، والنبي ﷺ يضرب مثلا رائعًا في تكريم النفس الإنسانية، فقد مرت به جنازة يهودي فقام. فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: "أليست نفسًا"[1].

فإن كان هذا فعله ﷺ مع نفس ميتة فكيف كان حاله ﷺ مع الأحياء.

فلا فرق على أرض الوطن– في النظرة الإسلامية– بين مسلم وغير مسلم لكل حقوقه وعليه واجباته. وكلاهما يحفظ للآخر كرامته وحظه من الإنسانية.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهود (٢/٨٥) (١٣١٢)، صحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب القيام للجنازة (٢/٦٦١) (٩٦١).

المبحث الرابع

إقرار سنة الاختلاف بين الناس

تقسيم:

تم تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين نعرضهما على النحو الآتي بيانه:

المطلب الأول: الاختلاف سنة حتمية.

المطلب الثاني: الاختلاف أساس المواطنة.

المطلب الأول
الاختلاف سنة حتمية

الاختلاف والمخالفة: هي أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله، أو قوله(١).

وهذا الاختلاف سنة من سنن الله في خلقه، قائمة مقام الناموس الذي لا تغيير له ولا تحويل، باقية أبدية، لا تفارق وصف الإنسانية: "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (هود: ١١٨)، يقول الطاهر بن عاشور: قوله تعالى: "ولذلك خلقهم" اللام للتعليل، لما خلقهم على جبلة واحدة قاضية باختلاف الآراء وكان مريدًا لمقتضى تلك الجبلة وعالمًا به كان الاختلاف علة غائية لخلقهم(٢).

ويقول العلامة رشيد رضا: "والذي دل عليه الكلام من مشيئته تعالى في

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دمشق، دار القلم، ٣١٥/١.

(٢) التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، ١٩٩٧م، ١٩٠/١٢.

الناس: خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم، ومعارفهم، وآرائهم، وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك الدين والإيمان والطاعة والعصيان... فالاختلاف طبيعي في البشر وفيه من الفوائد العلمية والعملية ما لا تظهر مزايا نوعهم بدونه"(١).

هذا الاختلاف المفضي إلى تنوع وتعدد في الشرائع والمناهج: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا"(المائدة: ٤٢)، والأجناس: "وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى"(آل عمران: ٣٦)، والقوميات واللغات: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ" (الروم: ٢٢)، وفي الشعوب والقبائل: "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" (الحجرات: ١٣). هذا الاختلاف وهذا التنوع مصدر قوة وتكامل بين البشر، ولا ينبغي أبدًا أن يكون طريقًا للفرقة والنزاع. والتعارف والتناصر نتاج اختلاف الشعوب والقبائل وكما أن الإنسان ذاته نتاج التقاء مختلفين: الذكر والأنثى، فكذلك كل اختلاف يجب أن يكون مصر إثراء وأن يتولد منه ما يحقق مصلحة أكبر وتعاون أكثر.

وهو معنى قول الجاحظ: "إن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم، ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم"(٢). إذ لولا هذا الخلاف لاختار الناس أمرًا واحدًا ودينًا واحدًا ووطنًا واحدًا ولفسدت بهذا أحوالهم على الجملة.

فلا جرم. كما يقول الطاهر بن عاشور. أن الله خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور ومنها أمر الصلاح والفساد ليتفاوتوا في

(١) تفسير المنار، مرجع سابق، ١٢/١٩٤، ١٢/٢٢٢.
(٢) الرسائل، مرجع سابق، ٣/٢٤٢.

مدارج الارتقاء[١].

وكما يقول الأستاذ سيد قطب: "فالغاية من الخلق ليست التناصر والخصام وإنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس اللون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هناك ميزان واحد، تتحدد به القيم ويعرف به فضل الناس: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[٢].

المطلب الثاني
الاختلاف أساس المواطنة

ليس الاختلاف في ذاته هو أساس المواطنة، فالاختلاف كما أنه سبيل التعارف والتكامل والوئام فهو في ذات الوقت سبيل التنابذ والتفرقة والنزاع، وإنما تختلف نتيجة الاختلاف حسب طريقة تناوله والتعامل مع المختلف.

والمواطنة لا تقوم إلا على التسليم باختلاف من ناحية، وحقوق المختلف من ناحية أخرى فنجد القرآن الكريم لما سلم بحقيقة الاختلاف وأنها جارية مجرى السنن الكونية، أقر حرية الاختلاف في أبعد مداها حتى جعل للمختلف حق اختيار دينه وشريعته غير محاسب في الدنيا على ذلك، ويبقى مرده إلى الله تعالى: "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا"(الكهف: ٢٩)، "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ

(١) التحرير والتنوير، ١٢/١٨٨.
(٢) في ظلال القرآن، ٦/٣٣٤٨.

فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (آل عمران: ٦٤).

ثم يضع القرآن الكريم منهجيته في التعامل مع المخالف: "لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة: ٨)، "وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (العنكبوت: ٤٦).

ومن يراجع القرآن الكريم والسنة وكتب الأقدمين والمعاصرين، يجدها ملئَ بالحديث عن كثير من المبادئ والقيم والتوجيهات الخاصة بذلك. ويقدم التاريخ شاهدًا على تنزيل هذه المبادئ والقيم إلى واقع ملموس؛ إذ ضم العالم الإسلامي في أراضيه على امتدادها وفساحتها كما هائلاً من الجنسيات والأعراق واللغات والمذاهب والآراء والمعتقدات والأديان، وتفاعلت فيما بينها وتلاحقت وتحاورت وتجادلت، وشاركت كلها في صنع الحضارة الإسلامية، في علومها وفنونها ونظمها ومؤسساتها المختلفة، وإن ظهرت فيما بينها بين الحين والآخر نزاعات وصراعات وحروب فهي استثناء لا أصل(١).

فالمواطنة في الإسلام تقوم على فكرة تقبل الآخر أيا كان اختلافه، فلا تعرف العنصرية ولا القومية، فلا فضل لأحد على أحد في الدنيا: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا" (المائدة: ٤٢)، فالاختلاف أساس قيامها، وثمرة وجودها، فالقاعدة فيها أنه مادام الاختلاف واضحًا للعيان، مدركا بالحس والعقل والشرع، فإن الإقرار به والتسليم له والتعامل معه كأمر طبيعي، ضروري لإقامة الحياة في ظل الوطن الواحد.

فالاختلاف في ظل الوطن الواحد يجب أن يُتناسى ويتحول إلى قوة فاعلة،

(١) د. بسطامي سعيد، رؤية إسلامية لمشكلة التعددية، مجلة البيان، لندن، المنتدى الإسلامي، ع (٢١٦) شعبان ١٤٢٦هـ، ص٩.

تستكمل بها حلقات النقص بين المتحالفين، ويعمل الجميع في إعلاء رفعة وطنه والحفاظ عليه حتى يعملوا كصف واحد.

المبحث الخامس

المساواة بين الناس

تقسيم:

تم تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب نعرضهم على النحو الآتي بيانه:

المطلب الأول: مفهوم المساواة.

المطلب الثاني: المساواة في الإسلام.

المطلب الثالث:المساواة بين المسلمين وغير المسلمين.

المطلب الأول
مفهوم المساواة

فالمساواة في اللغة: مأخوذة من التسوية؛ يقال: استويا وتساويا: أي تماثلا، وساوت بينهما مساواة أي: رفعت أحدها حتى بلغ قدر صاحبه ومبلغه(١).

فالمساواة التي نقصدها ها هنا هي: تشابه المكانة الاجتماعية والحقوقية، والمسئوليات، والفرص للناس في المجتمع على النحو الذي تقوم فيه الحياة المماثلة فيما بينهم(٢).

والمساواة بين الناس. على اختلاف أجناسهم وألوانهم. مبدءًا أصيلا في الشرع

(١) الزبيدي، تاج العروص، ٣٢٥/٣٨، ابن منظور، لسان العرب، ٤٠٨/١٤

(٢) د. محمد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص١١١.

الإسلامي، ولم يكن هذا المبدأ على أهميته وظهوره، قائمًا في لحضارات القديمة، كالحضارة الهندية أو اليونانية أو الرومانية، أو عند العرب في الجاهلية، إذ كان سائدًا تقسيم الناس إلى طبقات اجتماعية لكل منها ميزاتها وأفضليتها، وكانت التفرقة بين البشر في تلك المجتمعات تستند على الجنس واللون، والغنى والفقر، والقوة الضعف، والحرية والعبودية[1].

فالكتب المقدسة للهنود البرهميين تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى وتقسيم الوظائف الإنسانية بحسب منزلة كل طبقة منها، وشرف الوظيفة نفسها وأهميتها.

وكان قدماء اليونان يعتقدون أنهم شعب مختار، قد خلقوا من عناصر تختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى، التي كانوا يطلقون عليها اسم البربر، وأنهم قد بلغوا الكمال الإنساني، وقد زودوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة على حين أن الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية، مجردة من هذه القوى، لا تزيد كثيرًا عن وصائل الأنعام.

وكذلك كان الشأن عند الرومان، فكانت قوانينهم ونظمهم الاجتماعية تجرد غير الروماني من جميع ما يتمتع به الروماني من حقوق، وتنظر إليه على أنه من فصيلة وضيعة، وأنه لم يخلق إلا ليكون رقيقًا للرومان.

وكان العبرانيون يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وان الكنعانيين شعب وضيع.

---

(١) د. عبد الله التركي، حقوق الإنسان في الإسلام، ص٤٢؛ د. محمد صالح الصالح، حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، الأولى، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٥٥.

بحسب النشأة الأولى قد خلقه الله ليكون رقيقًا للعبرانيين.

وكان العرب في جاهليتهم يعتقدون كذلك أنهم شعب كامل الإنسانية، وأن الشعوب الأخرى، التي كانوا يطلقون عليها اسم الأعاجم، شعوب وضيعة ناقصة الإنسانية(١).

فجاء الإسلام ليعلن عهدًا جديدًا يعيش الناس فيه سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح وفضلاً عن إعلانه عن هذه المساواة فقد جاء بنظرية عظيمة في هذا الشأن لم تعرفها الأمم قديمها وحديثها ذلك أنها مساواة ربانية لا تعرف الأهواء البشرية.

المطلب الثاني
المساواة في الإسلام

لقد سبق الإسلام. منذ أكثر من أربعة قرنًا. إلى تقرير المساواة بصورها المختلفة المعروفة في الفقه الدستوري الحديث فقد قرر الإسلام مبدأ المساواة بين الناس في أكمل صورة، وأمثل أوضاعه، واتخذه دعامة لجميع ما سنه من نظم لعلاقات الأفراد بعضهم مع بعض، وطبقه في جميع النواحي التي تقتضي العدالة الاجتماعية، وتقتضي كرامة الإنسان أن يطبق في شؤونها.

وتتمثل هذه المساواة في الاعتقاد بأن الناس جميعا متساوون في طبيعتهم البشرية، وأن ليس هناك جماعة تفضل غيرها بحسب عنصرها الإنساني وانحدارها

(١) د. علي عبد الواحد وافي، المساواة في الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص١١– ١٣؛ د. محمد صالح الصالح، حقوق الإنسان، ص٥٥– ٥٦.

من سلالة خاصة، وما انتقل إليها من أصلها هذا بطريق الوراثة[١].

المساواة أمام الله:

الناس في الإسلام متساوون ولا يعترف الإسلام بالتفاوت بينهم إلا على أساس التقوى "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: ١٣). فالناس جميعًا منسوبون لأب واحد وأم واحدة فهم متساوون في أصل النشأة. هذه المساواة لا ترد عليها استثناءات فهي للناس كافة أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، مسلمهم وكافرهم، فالكل أمام الله، سواء والكل مُآخذ بعمله "يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ" (الشعراء: ٨٨).

وفي الحديث: "إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب"[٢].

المساواة أمام أحكام الشريعة:

فالمساواة التي قررها الإسلام تتضمن مساواة الأفراد جميعًا أمام القانون، فليس هناك فرد مهما علا مقامه، يعلو فوق القانون مكانة، فالحاكم والمحكوم متساوون أمام القانون فلا امتياز لهذا على ذاك. كما أنهم جميعًا متساوون أمام القضاء، فليس لطائفة خاصة محاكم خاصة، وليس في الإسلام بوجه عام، منزلة أو مميزة لطائفة أو أسرة معينة من الطوائف أو الأسر، فلا امتياز إلا بالتقوى والعلم وصالح الأعمال، ولا تفرقة بسبب الأصل أو الجنس أو اللون أو الثروة[٣].

---

(١) د. عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٧ بتصرف.

(٢) الحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود وسبق تخرجه.

(٣) الشيخ: عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، ص٤٠ بتصرف يسير.

والنبي ﷺ يحذر من هذه التفرقة وأن مصير ذلك إلى هلاك ووبال: "إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"(١).

فأحكام الشريعة الإسلامية تطبق على الجميع دون محاباة، ولا تمييز لفرد على آخر بسبب الجنس أو اللون أو المنصب أو الدين. فهي مساواة شاملة بين الحاكم والمحكومين، وبين الرجال والنساء، وبين المسلمين وغير المسلمين.

المساواة العنصرية:

فهذه العنصرية المقيتة والتي لا تزال تعاني منها أمم وشعوب قد أتى عليها الإسلام منذ مجيئه فلا فضل لأبيض على أسود، فهذا التفضيل في الإسلام ردة إلى الجاهلية.

فعندما سب أبو ذر رضي الله عنه بلالا وقال له يا ابن السوداء أنكر عليه النبي صلى إنكارًا شديدًا واعتبر هذا فعلا جاهلاً: "يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"(٢). والنبي ﷺ يعلن صراحة: "الناس بنو آدم وآدم من تراب".

وقصارى القول أن الحضارة الإسلامية لم تعرف هذا التمييز العنصري بين البيض والسود، ولم يكن فيها مجتمعات خاصة للسود لا يساكنهم فيها أبيض، ولا اضطهاد خاص بهم يجعلهم كل نقمة البيض وازدرائهم، وإنما كانت حضارة إنسانية

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (١٧٥/٤) (٣٤٧٥)، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (١٣١٥/٣) (١٦٨٨).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (١٥/١) (٣٠).

تنظر إلى الناس جميعًا بمنظار الحق والخير، ولا ترى البياض والسواد إلا ببياض الأعمال وسوادها "فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (الزلزلة: ٧-٨) [١].

المطلب الثالث
المساواة بين المسلمين وغير المسلمين

يسوي الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والواجبات، فتقرر الشريعة الإسلامية أن الذميين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين، ويجب على الدولة أن تقاتل عنهم كما تقاتل عن رعاياها المسلمين وتطبق عليهم القوانين القضائية التي تطبق على هؤلاء، إلا ما تعلق منها بشئون الدين، فتحترم فيه عقائدهم، فلا توقع عليهم الحدود الإسلامية فيما لا يحرمونه، ولا يدعون إلى القضاء في أيام أعيادهم، لقوله عليه السلام: "وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت"[٢].

ولا يقف الأمر في معاملة الذميين عند نصوص الشرع والقانون، بل إن الحاكم المسلم لمطالب فوق ذلك بالمجاملة وحسن المعاملة في غير ما بينته النصوص وفصلته العهود. وفي هذا يقول عليه السلام: "ألاّ من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"[٣] ويقول عمر بن الخطاب في كتاب له إلى عمرو بن العاص في أثناء ولايته على

(١) د. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، الأولى، القاهرة، دار السلام، ١٩٩٨م، ص٥٧.
(٢) مسند أحمد (١٣/٣٠) (١٨٠٩٢)، المستدرك على الصحيحين (٥٢/١) (٢٠).
(٣) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة (١٧٠/٣) (٣٠٥٢).

مصر مشيرًا إلى الحديث السابق: "إن معك أهل الذمة والعقد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ خصمك"(١).

ومن هنا كان مبدأ المساواة من الأسس المهمة التي تقوم عليها المواطنة.

"فهي تمثل مقوم أساسي للنظام العام الإسلامي التي يحظر الخروج عليها أو المساس بها في أي شكل من الأشكال، وبالتالي فهي ترقى على مختلف الحقوق والحريات الإنسانية الأخرى، بمعنى أن احترام الحقوق والحريات المقررة والمعترف بها للإنسان شرعًا يتم تحت مظلة مبدأ المساواة"(٢).

(١) د. علي عبد الواحد وافي، المساواة في الإسلام، ص٢١-٢٢.

(٢) د. إبراهيم العناني، المساواة وعدم التمييز في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، ضمن الندوة العلمية حول حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، الرياض، أكاديمية نايف، ٢٠٠١م، ص٢٢٢.

المبحث السادس

العدل الإنساني

تقسيم:

تم تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب نعرضها على النحو الآتي:

المطلب الأول: مفهوم العدل في الإسلام.

المطلب الثاني: مجالات العدل وتحقيق العدالة في الإسلام.

المطلب الثالث: العدل أساس المواطنة.

المطلب الأول

مفهوم العدل في الإسلام

العدل في اللغة: ما قام في النفس أنه مستقيم، وهو ضد الجور؛ يقال: عدل الحاكم في لحكم يعدل عدلاً فهو عادل(١)، والعدل: الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط. وهو عبارة عن الاستقامة على طريق الحق، بالاجتناب عما هو محظور دنيا(٢).

وتعرف السياسة العادلة. فيما يعرفها به علماء الفقه الإسلامي. بأنها: "الأحكام والتصرفات التي تُعني بإسعاد الأمة، وتعمل على تحقيق مصالحها، وفقًا لمبادئ الشريعة وأصولها العامة، غير متأثرة بالأهواء والشهوات"(٣).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ١١/٤٣٠.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م، ص١٩١- ١٩٢.

(٣) الشيخ: عبد الرحمن تاج، السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، ص٤٤، عن د. عبد الحميد متولي، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، الإسكندرية، منشأة المعارف، ٢٠٠٨م، ص٨٦٥.

وللعدل صورتان:

الأولى: سلبية، بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أي بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة آثار التعدي الذي يقع عليهم، وإعادة حقوقهم إليهم، ومعاقبة المعتدي عليها فيما يستوجب العقوبة، وهذا يتجلى في أحكام كثيرة تتعلق بالمعاملات المالية، والحقوقية بوجه أعم، وبالجنايات. وكلها مفصلة في كتب الفقه الإسلامي. بالاستناد إلى أصولها ومصادرها في الكتاب والسنة.

الثانية: إيجابية، وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة: من إسناد الأعمال إلى أهلها دون محاباة لقرابة أو صداقة، ومن القيام بحق أفراد الشعب في كفالة حرياتهم وحياتهم المعيشية حتى لا يكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدد، وهذه كلها من واجبات الحاكم في الإسلام(١).

والعدل. في شريعة الإسلام. فريضة واجبة، وضرورة من الضرورات الاجتماعية والإنسانية، وليس مجرد "حق" من الحقوق التي لصاحبها أن يتنازل عنها إن هو أراد ذلك، وأن يفرط فيها بالإهمال، دون وزر وتأثيم...إنه فريضة واجبة فرضها الله سبحانه وتعالى على الكافة دون استثناء، بل لقد فرضها على ذاته سبحانه بالمعنى اللائق بذاته حتى لقد جعلها اسما من أسمائه الحسنى...وفرضها على رسوله ﷺ وأمره بها: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ" (الشورى: ١٥)، وفرضها على أولياء الأمور، من الولاة والحاكم والرعاة

(١) محمد المبارك: نظام الإسلام الحكم والدولة، ص٤٥– ٤٦، عن د. فرج الوصيف: أسس نظام الحكم، الثانية، المنصورة، كلية أصول الدين والدعوة، ٢٠٠٠م، ص١٦٧.

تجاه الرعية والمتحاكمين: "إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" (النساء: ٥٨)[١]. وفي الحديث: "المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولوا"[٢].

- مكانة العدل في الإسلام:

لعل المكانة التي جعلها الإسلام في تشريعه للعدل لم تجعلها له أية شريعة سابقة، ولم يبلغ مثلها مكان العدل في أي نظام قانوني قديم أو حديث. وليس أدل على ذلك من آيات القرآن الكريم الكثيرة التي تحض على العدل وتأمر به: أمرًا مجملاً شاملاً للشئون كلها، في العديد من الآيات. وأمرًا مفصلاً خاصًا ببعض الأمور التي يتوقع فيها الحيف والظلم. في بعض الآيات الأخرى[٣].

وقد عني القرآن الكريم بالتأكيد على مبدأ العدل بين الناس في مكية ومدنية، وحذر مقابله وهو الظلم في مكية ومدنية، أمر به عامًا وخاصًا، ومع من نحمل لهم الحب ومن نحمل لهم الشنآن، وفي السلم والحرب، وفي الأقوال والأفعال، ومع النفس والغير، فدل على أنه نظام الله وشرعه[٤]؛ فهو سبحانه إنما "أرسل رسله

(١) د. محمد عمارة، معركة المصطلحات، ص١٠٢.

(٢) مسند أحمد (٣٢/١١) (٦٤٩٢).

(٣) د. محمد سليم العوا، في النظام السياسي في الإسلام، الأول، دار الشروق، ١٩٨٩م، ص٢٠٥.

(٤) الشيخ: محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٤٥؛ فريد عبد الخالق، في الفقه السياسي الإسلامي، الأول، دار الشروق، ١٩٩٨م، ص١٩٩.

وأنزل كتبه ليقوم النسا بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإن ظهرت إمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان: فقم شرعه ودينه"(١).

فالعدل في الإسلام غاية في الدولة الإسلامية، فهو إقامة للدين وتحقيق لمصالح المحكومين ودليل على خيرية الأمة، "ومما يجدر ذكره أن الغاية في نظام الحكومة الإسلامية وتحققها شرط لقيام هذه الحكومة (أي لتوليها السلطة). أو بتعبير الفقه الإسلامي شرط ابتداء. وهي كذلك شرط لدوام استحقاق الحكومة في الدولة الإسلامية وصف الشرعية، أو بتعبير الفقه الإسلامي شرط بقاء"(٢).

وفي الوقت الذي يعلي فيه الإسلام من قيمة فإنه يخفض من شأن الظلم ويتوعد عليه، حتى إن الله عز وجل قد حرمه على نفسه تحريمًا أبديًا: "إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ" (النساء: ٤٠)، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا"(٣) ويؤكد على بشاعة الظلم وسوء عاقبة الظالمين في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ" (يونس: ١٣)، وفي الآخر: "وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا" (الفرقان: ١٩)، "وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ" (الزمر: ٤٧).

فالعدل بصورتيه الإيجابية والسلبية له مكانة عظيمة في الإسلام، سواء

(١) ابن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: د. محمد جميل غازي، القاهرة، مطبعة المدني، ص١٩.

(٢) د. محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص؟؟؛ فريد عبد الخالق، في الفقه السياسي الإسلامي، ص٢٠٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (١٩٩٤/٤) (٢٥٧٧)، والحديث من رواية أبي ذر عن النبي ﷺ.

ما كان على نطاق الأشخاص الآحاد أم على نطاق الجماعات والدول.

المطلب الثاني
مجالات العدل وتحقيق العدالة في الإسلام

أمر الإسلام بالعدل هكذا أمرًا عامًا، دون تخصيص فالإسلام يطلب منا العدل مع النفس والذات: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا" (النساء:٩٧).

ويطلب منا العدل مع الآخر: "فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ" (الشورى: ١٥)، "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ" (النساء: ١٣٥)، "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (الأنعام: ١٥٢)، بل يوجب علينا العدل حتى مع من نكره: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائدة: ٨)، "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ" (المائدة: ٢).

وأكثر من ذلك يوجب علينا العدل حتى مع من يعتدي علينا ويقاتلنا: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ" (البقرة: ١٩٤)[١].

---

(١) د. محمد عمارة، السماحة الإسلامية، الأولى، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥م، ص١٢- ١٣ بتصرف.

فالعدل يدخل في كل شيء، بدءًا من عدل الإنسان مع نفسه وأهل بيته وانتهاء بعدله مع عدوه وبغيضه، وهذا ما أطلق عليه الماوردي بأنه: "عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان"(١).

أما تحقيق العدالة فيقع على كاهل الإنسان الفرد كما يقع على عاتق الدولة، فبالنسبة للفرد أو ما يطلق عليه العدالة النفسية وذلك "بأن يقدر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار ما يقدره لغيره على ألا يزيد على الناس في حق، وقد يفرض الإنسان على نفسه زيادة في الواجب"(٢) أساس هذه العدالة قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ" (النساء: ١٣٥)، وقوله ﷺ: "من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتي إليه"(٣).

وأما عدالة الدولة "فمقام هذه العدالة التنظيم الظاهر، ولكنه لا ينفذ كاملاً إلا إذا كان قائما على أساس من العدالة النفسية عند الحاكم والمحكوم على السواء، فعلى الحاكم ألا يفرض من النظم إلا ما يطبقه أولا على نفسه وأسرته(٤)، كما يروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "كان إذا أراد أن ينهي الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال: لا أعلمن أحدا وقع في شيء مما نهيت عنه؛ إلا أضعفت له العقوبة"(٥) وهذه العدالة لها أقسام ثلاثة(١).

(١) أدب الدنيا والدين، الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ، ص١١٦.
(٢) الشيخ: محمد أبو زهرة، المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام، ص١٦٦.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء (١٤٧٢/٣) (١٨٤٤).
(٤) الشيخ: محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني، ص١٦٦– ١٦٧.
(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ٢٨٩/٣.

أولاً: المساواة أمام النص التشريعي:

وهو ما يسمى بالعدالة القانونية، وهي كون التشريع الإسلامي في خطابه موجها للجميع وكذلك في تطبيقه المساواة بين الجميع لا فرق فيه بين شخص وآخر باعتبار جنسه أو لونه أو طبقته أو دينه. يقرر هذا المبدأ عندما أهم قريشًا أمر المخزومية التي سرقت فطلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن يشفع فيها فغضب ﷺ وخطب في الناس قائلاً: "إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"(٢).

ثانيًا: العدالة الاجتماعية.

وموجبها كشف التسوية بين الناس وليس مقتضية لإلغاء الفقر في هذا الوجود، وإنما المعنى هو تمكين كل ذي قوة من أن يعمل بمقدار طاقته، بحيث تهيأ الفرص المناسبة لكي تظهر كل القوى وتوضع كل قوة في مرتبتها، وأن توجد الكفالة للعاجزين عن العمل لكي يعيشوا وينالوا حظهم من الحياة ليكونوا قوة في الجماعة وإن كانوا صغارًا، وليأمنوا الجوع والعري وإن كانوا كبارًا.

ثالثًا: العدالة الدولية.

فالعلاقات الإنسانية في الإسلام تقوم على المودة والصلة، ولا نفرق في ذلك العلاقات بين الآحاد فرادى وبين الجماعات وبين الدول، فالفضيلة واحدة لا تتجزأ وليس لها معياران أحدهما للآحاد والآخر للجماعات.

---

(١) الشيخ: محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني، ص١٦٧- ٢٠٩ باختصار.

(٢) سبق تخريجه.

– العدل والأقليات:

العدل في الإسلام قيمة لا تتجزأ ولا تتحول، فهي أصل للعلاقات الإنسانية لا تختص بنوع من دون نوع، ولا بطائفة دون طائفة، لأن العدل نظام الله وشرعه، والناس عباده وخلقه، يستوون. أبيضهم وأسودهم، ذكرهم وأنثاهم، مسلمهم وغير مسلمهم–، أمام عدله وحكمه: "لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا" (النساء: ١٢٣).

فميزان الله تعالى لا يحيف ولا يزيغ فلا يظلم عرقا وفئة ولا طبقة وحزبا وأن رب الناس هو الذي يقرر الحقوق بحكمته وعدالته للناس جميعًا. فاختلاف الألسنة والألوان من آيات الله في البشر فلا مبرر للاستعلاء والعصبية، كما أن الإسلام يوجب محاربة البغي والتعسف والطغيان حتى يعود العدل والإحسان.

"وعدالة الإسلام إذ تبطل العصبية للعرق وافتئات الطبقات وبغي أية فئة بوجه عام، فإنهما لا تقيم تسلطا جائرًا لمعتنقي الإسلام على غيرهم من اتباع سائر الأديان"(١).

وقد رأينا مبلغ عناية القرآن بالعدل مع المخالفين فعند حديثه عن أهل الكتاب وحفظه للأمانات حرص على العدل حتى إنه يقدم فيهم المدح والذم: "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا" (آل عمران: ٧٣). وهذا منتهى الإنصاف.

ويأتي الأمر القرآني للنبي ﷺإذا حكموه في أمورهم بأن يحكم بالعدل: "فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ

---

(١) د. عبد الفتاح إسماعيل، القيم السياسية في الإسلام، الأولى، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١م، ص٨١– ٨٢.

حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة: ٤٢).

فالإسلام لا يعرف الجور والظلم مهما كان سببه، فلا غاية مهما كانت تبرر الحياد عن العدل قولا: "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى" (الأنعام: ١٥٢)، وفعلاً: "وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ" (النساء: ٥٨).

فلا محاباة لأحد على أحد، لطائفة على طائفة، ولا لأهل دين على غيرهم، فالكل عند مقام العدل الإنساني سواء: "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" (المائدة: ٨).

وفي التطبيق الإسلامي يروي سليمان بن يسار أن النبي ﷺ كان يبعث "ابن رواحة" إلى خيبر فيحرص بينه وبين يهود فجمعوا حليا من نسائهم فقالوا هذا لك وخفف عنا قال: يا معشر يهود والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلى وما ذاك بحاملي على أن أصف عليكم، والرشوة سحت، فقالوا: بهذا قامت السماء والأرض[١].

وذات مرة سأل جعد بن هبيرة علي. متعجبًا. فقال: يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا؟ فلهذه علي. ضربه بجميع كفه. وقال: إن هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء لله[٢].

ومن أبهى نماذج العدل الإنساني في الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين ما ذكره الطبري من شكوى أهل سمرقند لعمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه وإنصافه

(١) موطأ مالك، (٧٠٣/٢)، الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، التاسعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٣١هـ، ٢٣٧/١، والخرص: أن يقدر ما على النخل والكرم حتى يأخذ المسلمون حقهم حسب العهد المبرم بينهم.

(٢) الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ٥/٨.

لهم؛ وذلك أن القائد قتيبة بن مسلم الباهلي– رحمه الله– فاتح بلاد ما وراء النهرين والصين–، قد فتح مدينة (سمرقند) دون أن يخير أهلها بين الدخول في الإسلام، أو المعاهدة، أو القتال، وبعد عشرين سنة من فتحها، وحين صار عمر بن عبد العزيز– رضي الله عنه– خليفة للمسلمين، وسمع أهل سمر قند بعدله، استأذنوا أميرها سليمان بن أبي السري قائلين:

"إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكو ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه فإن بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوما فقدموا على عمر فتكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري:

إن أهل سمرقند قد شكوا إلى ظلما أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة.

قال فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي الناجي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحا جديدًا أو ظفرًا عنوة فقال أهل السعد، بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا وتراضوا بذلك فقال أهل الرأي قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا"(١). وكان ذلك سبب في إسلام أكثرهم.

(١) تاريخ الطبري، ٦٩/٤.

المطلب الثالث
العدل أساس المواطنة

فالعدل أساس العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وبه يلتزم الإنسان بما عليه من الواجبات ويعرف ما له من حقوق فهو أساس للتعامل في المجتمع المسلم في مختلف أوجه التعامل والعلاقات. وإذا كان الأقدمون قد اعتبروا أن العدل أساس الملك وهو كذلك فهو أيضًا أساس حفظ الأوطان وأساس عمارها.

ومن فقه الإمام ابن تيمية وبعد نظرته وتمرسه في الحياة أنه يجعل أصل قيام الدول إنما هو العدل حتى ولو لم تكن ذات دين فيقول: "وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم: أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام"(١).

ويعقد ابن خلدون في مقدمته فصلا عنوانه: "الظلم مؤذن بخراب العمران" وفيه: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب".

" ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقًا لم يفرضه الشرع فقد

---

(١) مجموع الفتاوى، تحقيق: عامر الجزار، أنور الباز، المنصورة، دار الوفاء، ١٤٦/٢٨.

ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتمون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها.

فالعدل هو القاعدة العظمى التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية، فهو داعي الألفة، وحفظ الحقوق، وبه يأمن الناس على أموالهم وأعراضهم، وبه تحفظ الكرامة الإنسانية، وتنبذ به الطائفية والعنصرية ويصبح الناس ناسًا لا فرق بين أحدهم والآخر، ففيه حفظ الدين والدولة والفرد والأمة، والحاكم والمحكوم.

المبحث السابع

عالمية رسالة الإسلام

رسالة الإسلام رسالة عالمية، لا يحدها تخوم أرضية، ولا حدود جغرافية، ذلك أنها الرسالة الخاتمة التي ليس وراءها رسالة، جاءت منقذة للإنسانية كلها، فليست خاصة بمكان دون مكان ولا طائفة دون طائفة شعارها: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (الأعراف: ١٥٨)، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء: ١٠٧)، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" (سبأ: ٢٨).

والنبي ﷺ يعلن الخاصية التي تميزت بها رسالته عن رسالات الأنبياء قبله فيقول: "فُضّلت على الأنبياء بست: ... وختم بي النبيون"(١).

فعالمية هذا الدين عالمية زمانية ومكانية معا، فهو دين يمتد مكانًا ليشمل نطاق الأرض جميعًا، ويمتد زمانًا، ليشمل جميع البشرية من لدن محمد ﷺ وحتى قيام الساعة، هذه العالمية توجب على المسلمين دورًا دعويًا تجاه الأمم الأخرى، فلا ينحصر الإسلام والمد الإسلامي داخل أرضه، فالعالم كله في القرن الإسلامي إما دار استجابة، وإما دار دعوة "إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (الأعراف: ١٢٨)، وهذه العالمية هي سبيل التدافع الحضاري. وليس التصارع الحضاري. من جهة والتفاعل الحضاري من جهة أخرى، فالتدافع عندما ترفع الحضارات الأخرى شعار العداء للإسلام، والتفاعل في حالة المسالمة. وفي كل الحالات فإن الإسلام يحتفظ بذاتيته وهويته واستقلاله الحضاري دائمًا، دون أن ينخرط أو يتأثر أو يتبع ويقلد أي حضارة أخرى.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٣٧١/١) (٥٢٢).

وإذا كان الإسلام دينا عالميًا، فإنه في جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعني "المركزية الدينية" التي تريد العالم دينًا واحدًا، فهو ينكر هذه المركزية الدينية، عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله في الاجتماع الديني، لا تبديل لها ولا تحويل: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ" (المائدة: ٤٨)، "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ" (هود: ١١٨– ١١٩)، فهو سبحانه قد خلقهم للتنوع والاختلاف[١] لا ليكونوا نسخا متكررة.

هذا التنوع والاختلاف الذي يقره الإسلام بالإضافة إلى مبدأ عالميته، هو الأساس الراسخ الذي تقوم عليه علاقة المسلم مع غير المسلم من ناحية، وتوطنه في أرض غير إسلامية من ناحية أخرى، إذ كيف يحمل المسلمون هذه العالمية التي تقتضي ضرورة التبليغ إلى أهل الأرض جميعًا وهم مقيمون في أرضهم.

وإذا كان الإسلام قد أبقى على غير المسلمين في أرضه بعقد الذمة، وليس ذلك طمعًا في أموالهم، وإنما لدعائهم إلى الدين بأحسن الوجوه إذ إن سكنتهم بين المسلمين يريهم محاسن الدين ولعل واعظًا يعظهم فربما يسلم[٢].

فهذه العلة ذاتها هي أساس مواطنة المسلم خارج أرضه في أرض غير إسلامية، فهذا هو السبيل القويم في دعوة غير المسلمين، حيث يكونون.

ولا يجوز أن يفهم من هذه العالمية التي جعلها الإسلام أساسًا راسخًا لعلاقة المسلم مع غير المسلم، على أنها انفلات أو استعداد للذوبان في أي كيان من

(١) د. محمد عمارة، العطاء الحضاري للإسلام، الأولى، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ، ص٨١؛ د. عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، مرجع سابق، ص٨٠.
(٢) شمس الدين السرخسي، المبسوط، بيروت، دار المعرفة، ٧٧/١٠.

الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين، فهي لا تلغي الفارق والاختلاف، فالتأكيد على الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التعارف بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها[١].

إن الحقيقة التي لاشك فيها هي أن الإسلام يؤكد على إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها سواء أكانت رابطة نسبية، أم إقليمية، أم عنصرية، أم طبقية، فالمسلم أخو المسلم، والمسلم أقرب إلى المسلم من أي كافر بدينه، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدي على من سواهم، وهذا ليس في الإسلام وحده، بل هي طبيعة كل دين، وكل عقيدة[٢].

فجملة القول: إن العالمية المكانية التي تقتضي توصيل الدين إلى كل البشر في كل البقاع وتعريفهم به، وتحبيبهم فيه بدون إكراه؛ لا تتأتى غالبًا إلا بالاقتراب منهم، ودعوتهم إلى الإسلام بالفعل قبل الكلام، ولاسيما أننا أصبحنا في زمن استطاع فيه الغرب أن يشوه فيه صورة الإسلام وحامي لواءه، ولا يدافع ذلك بالتكذيب عن طريق البيانات والخطب والرسائل، وإنما بالإقامة بينهم، ومعاملتهم، ولا يتم ذلك إلا بنفرة البعض لمواطنتهم والعيش معهم، ومن هنا كانت عالمية الإسلام أساسًا قويًا لمواطنة المسلم في أرض غير إسلامية.

---

(١) د. عبد العزيز التويجري، المرجع السابق، ص٨١، بتصرف.

(٢) د. يوسف القرضاوي، من فقه الدولة في الإسلام، الثالثة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠١، ص١٩٧.

المبحث الثامن

السماحة الإسلامية

تقسيم:

تم تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين نعرضهما على النحو الآتي:

المطلب الأول: مفهوم السماحة في الإسلام.

المطلب الثاني: التسامح الديني ومظاهره.

المطلب الأول
مفهوم السماحة في الإسلام

السماحة في أقرب معانيها تعني: السهولة واللين في المعاملات والعفو والإغضاء عند المزلات، قال الطاهر بن عاشور: "السماحة: سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة"(١)، فهي عطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.... وهذه السماحة. في النسق الإسلامي. ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة، كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية، يمنحها الحاكم ويمنعها آخر... إنما هي دين مقدس، ووحي إلهي(٢)، ففي الحديث: "إني أُرسلت بحنيفية سمحة"(٣).

هذه السماحة الإسلامية أساس من الأسس التي تنبني عليها العلاقات

---

(١) الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الثانية، تونس، الشركة التونسية للتوزيع بالجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص٢٥.

(٢) د. محمد عمارة، السماحة الإسلامية، مرجع سابق، ص٩.

(٣) مسند أحمد (٣٤٩/٤١) (٢٤٨٥٥).

الإنسانية كافية، سواء أكانت بين آحاد أم جماعات، متفقين أم مختلفين، فلا تقف على طائفة، أو نوع، أو عرق، أو دين، وإنما هي سماحة عامة، لا يحدها حد من الفعال، ولا يؤثر فيها شيء من الاختلاف والخلاف: "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت: ٣٤)، "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الحجر: ٨٥)، فلم يرض الله عز وجل لنبيه مجرد الصفح حتى أمره بالصفح الجميل، وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران... هو صفح يسلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، بخلاف الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح، حيث يقتضي المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة[١].

فالسماحة من خصائص دين الإسلام، وهي أشهر مميزاته، وإنها من النعم التي أنعم الله بها على أنداده وأعدائه، وأدل حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقرر بقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء: ١٠٧)[٢].

هذه السماحة منطلقة أصلاً من قاعدة الرحمة العامة التي أصل لها الإسلام، وجعلها شرطًا لدخول الجنة ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا" قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: "إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة"[٣].

ويروي أبو هريرة عن النبي ﷺ قوله: "من لا يرحم لا يُرحم"[٤]. وفي رواية:

---

(١) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص٤٣٤.
(٢) الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص٢٢٩.
(٣) سنن النسائي، والمستدرك على الصحيحين. وسبق تخرجيه.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (١٠/٨) (٦٠١٣)، صحيح مسلم،

"من لا يَرحم الناس، لا يرحمه الله عز وجل"(١).

وهذا الحديث كما قال ابن بطال فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر والبهائم، المملوك منها وغير المملوك(٢).

فالعلاقات الإنسانية بكل جوانبها تقوم على هذا التسامح والتراحم بين الناس، في بيعهم وشرائهم وقضائهم ففي الحديث: "إن الله يحب سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء"(٣)، "رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى"(٤).

وعند معاملتهم في قضاء حوائجهم: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به، حيث شاءت من حاجتها"(٥).

حتى تصير السماحة عنوانًا لكل تعامل ففي الحديث: "المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ استناخ على صخرة"(٦).

المطلب الثاني
التسامح الديني ومظاهره

كتاب الفضائل، باب رحمته، الصبيان (١٨٠٨/٤) (٢٣١٨).

(١) صحيح مسلم، (١٨٠٩/٤) (٢٣١٩)، من حديث جرير بن عبد الله.

(٢) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٤٤٠/١٠.

(٣) سنن الترمذي، أبواب البيوع (٦٠٠/٢) (١٣١٩)، المستدرك على الصحيحين (٦٤/٢).

(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (٥٧/٣) (٢٠٧٦)، من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر (٢٠/٨) (٦٠٧٢).

(٦) البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، الأولى، الرياض، مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م، (٤٧٣/٨)

ليس التسامح فقط ما يكون بين المسلمين بعضهم بعضًا، وإنما هو تسامح عام يشمل المسلمين كما يشمل غيرهم، فليس لاختلاف الدين أثر في ترك التسامح، وقد بدا هذا التسامح جليًا في علاقة المسلمين بغيرهم على مدار التاريخ الإسلامي كله، سواء في العهد النبوي، أم في عهد الخلافة الراشدة، أم العهود التي تلت ذلك حتى الآن.

وتتجلى أبرز مظاهر التسامح الديني مع غير المسلمين في:

١ – برهم والإحسان إليهم:

لم يكتف الإسلام بإتاحة الحرية الدينية لهم انطلاقًا من قاعدة "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (البقرة: ٢٥٦)، وأن الدين الإسلامي أجل وأعظم من أن يكره الناس على اتباعه "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ" (يونس: ٩٩).

وإنما فوق ذلك، لم يمانع من برهم وصلتهم وبذلك المعروف والإحسان لهم: "لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة: ٨).

قال ابن جرير الطبري: "عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين: من جميع أصناف الملل والأديان، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم؛ إن الله عز وجل عم بقوله "الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ" جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص بعضًا دون بعض"[١].

فالبر: القسط مرغوبان لكل أحد، سواء كان مسلمًا أم غير مسلم، مادام يسالم المسلمين ولا يحاربهم، فالتسامح لا ينبغي أن يكون عن ذلة أو مهانة، ولا يجوز

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٨/٦٦.

أن يكون سببًا في تمكين أهل الباطل الذين يظاهرون على المسلمين.

٢- ترك جدالهم والرفق في الرد عليهم:

فالقرآن الكريم ينهي المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب في دينهم إلا بالحسنى، حتى لا يوغر المراد والصدور، ويوقد الجدل واللدد نار العصبية والبغضاء في القلوب(١)، قال تعالى: "وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا) (العنكبوت: ٤٦). " وهو موقف دقيق لاشك بحكم دقة المسائل العقدية التي أثيرت، ومازالت تثار، طالما أن الإسلام دين يعني بالفرد والجماعة معا، ويسعى إلى قيام مجتمع متاخ ومتكافل تسوده الحرية والتسامح، ويشعر فيه كل واحد بمسئولية بنائه والحفاظ عليه"(٢).

وتروي عائشة رضي الله عنها حديثًا يعتبر بحق أصل التسامح والرفق مع غير المسلمين. فتقول: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: "فقد قلت: وعليكم"(٣).

٣- إباحة مصاهرة أهل الكتاب وأكل طعامهم:

يقول الله تعالى: "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ" (المائدة: ٥).

إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية ثم يعتزلهم، فيصبحوا في

(١) د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٦.

(٢) د. جعفر عبد السلام، د. أحمد السابح، المسلمون والآخرة، سلسلة فكر المواجهة، ع (٢٠)، القاهرة، رابطة الجامعات الإسلامية، ١٤٢٧هـ، ص٥٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة السلام (٥٧/٨) (٦٢٥٦).

المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين- أو منبوذين- إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخلطة. فيجعل طعامهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلا لهم كذلك. ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة.. وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم- وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر- طيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات. وهي سماحة لم يشعر بها إلا اتباع الإسلام من بين سائر اتباع الديانات والنحل. فإن الكاثوليكي المسيحي ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية. ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة! وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة، التي تظلها راية المجتمع الإسلامي. فيما يختص بالعشرة والسلوك(١).

فأغلب التعامل بين الناس قائم على المؤاكلة والمصاهرة، ومع هذا فقد أباح الإسلام للمسلم أن يأكل من ذبيحة الكتابي حتى لو لم تذبح على اسم الله كما قال ابن عباس: "وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ" يعني ذبيحة اليهودي والنصراني وإن كان النصراني يقول عند الذبح: باسم المسيح واليهودي يقول بسم عزيز، وذلك لأنهم يذبحون على الملة(٢).

والأعجب من ذلك أن يبيح مصاهرته. أي الكتابي. مع قيام الحياة الزوجية على المودة والرحمة كما قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٨٤٨/٢.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٧٦/٦.

لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم: ٢١).

"وهذا في الواقع تسامح كبير من الإسلام، حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته، وشريكة حياته وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين"(١).

المطلب الثالث
نماذج تطبيقية من التسامح الديني

فقد طبق النبي ﷺ مبدأ التسامح في علاقاته بالمشركين وغيرهم في معاهداته وفي حروبه، ففي المعاهدات، وجدنا تسامحه ﷺ في صلح الحديبية حتى أحس بعض الصحابة أنه نوع من الدنية في الدين ولكن النبي ﷺ يستمسك بالسماحة واللين ويعلن: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني حطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"(٢).

وفي الحروب وجدنا قمة السماحة في عفوه عن أهل مكة الذين أخرجوه وآذوه بعد أن قدر عليها وأعلن فيهم حكمه وسماحته: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وبين المعاهدات والحروب وجدنا سماحته وملاينته لأهل الذمة المسالمين، وتركهم وما يدينون وعدم إكراههم على الدخول في الإسلام، فقد صيغ دستور المدينة ليقر مبدأ التسامح بين جميع الأطراف المتعاقدة من المسلمين واليهود والوثنيين. ويترك للجميع حرية في اختيار دينه وعقيدته. فلا يضار أحد منهم في

(١) د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٦.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (١٩٣/٣) (٢٧٣١).

دينــه "لليهـود ديـنهم وللمسـلمين ديـنهم، مـواليهم وأنفسـهم... وأن بطانــة يهـود كأنفسهم".

ويكتب إلى أهل اليمن: "من محمد رسول الله إلى أهل اليمن... وأنـه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنـه من المؤمنين لـه ما لهم وعليـه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها، وعليه الجزية"(١).

ولما فتح المسلمون حصون خيبر غنم المسلمون منها صحائف من التوراة، فلما طلبها اليهود سلمها إليهم.

وعلى هدي الرسول الكريم في تسامحه الديني ذي النزعة الإنسانية الرفيعة سار خلفاؤه من بعده من ذلك ما كان من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تسامحه مع أهل القدس (إيليا) وكتابه بالأمان لهم وقد عاهدهم على الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها. ومما جاء في كتابه: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه

(١) أبو عبد القاسم بن سلام، الأموال، تحقيق: خليل محمد هراس، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، ص٢٤؛ ابن جرير الطبري، التاريخ، ١٩١/٢.

مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين"(١).

وظل هذا التسامح سمة للإسلام، وخصيصة لمعتنقيه، حتى شهد لهم بذلك القاصي والداني، فيقول المستشرق الإنجليزي سيرتوماس أرنود، وهو أبرز من أرخ لانتشار الإسلام، في كتابه الدعوة إلى الإسلام، حيث يؤكد على حقيقة السماحة الإسلامية فيقول:

"إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمون قد نعموا، يوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهاد التي قاست منها بين الحين والآخر على أيد المتزمتين والمتعصبين، كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح"(٢).

ومن النماذج المشرقة للتسامح الإسلامي ما ذكره خلف الله المثنى أنه: كان يجتمع في البصرة في مجلس لا يعرف مثلهم في تضاد أديانهم ونحلهم. الخليل بن

(١) الطبري، التاريخ، ٤٤٩/٢.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد الحميد عابدين، إسماعيل النمراوي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٧٩– ٢٣٠، د. محمد عمارة، السماحة الإسلامية، ص٣١.

أحمد النحول (سني)، والحميري الشاعر (شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجاشع (خارجي صفري)، وبشار بن برد (شعوبي خليع)، وعمر بن المؤيد (مجوسي)، وابن سنان الحراني الشاعر (صابئي)، فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ويتحدثون في جو من الود لا يكاد يعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم[1].

- السماحة الإسلامية أساسًا للمواطنة:

تعتبر السماحة أصلا للتعايش السلمي بين المواطنين مما ينشأ عن ذلك مواطنة حقيقية، هذه السماحة يحتاجها الأفراد كما تحتاجها الجماعات، ويحتاجها المتشاكلون في تعاملهم، كما هي ضرورية للمتنابذين.

هذه السماحة ضرورية في مجتمع متعدد الثقافات والألوان واللغات والأديان، ومتداخل في نفس الوقت، فالاحتكاك بين الفرقاء يحتاج نوعا من التقبل في البداية، وكثيرا من السماحة في النهاية. فلا يتشبث كل واحد بحقه غاضا الطرف عن حقوق الآخرين.

فالسماحة قاعدة أساسية في التعامل الإنساني بشكل عام، وبين شركاء الوطن الواحد بشكل خاص.

(١) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ، ٣٨٣/٩، د. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، الأولى، ص٦٩.

نتائج البحث

بعد الانتهاء من دراسة هذا الموضوع: (أسس المواطنة في الإسلام) يمكننا أن نستخلص بعض النتائج تتمثل في:

١- اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالانتماء للوطن، ولم يمانع من المبالغة في حبه- ما لم يأت ذلك على الدين- حتى إنه جعل الجهاد في تحرير هذا الوطن والمدافعة عنه أمرًا واجبًا شرعيًا، والموت في سبيل ذلك استشهادًا في سبيل الله.

٢- أن الإنسان المسلم ومع انتمائه الذي ولد ونشأ فيه؛ فإنه مطالب بالانتماء إلى الوطن الإسلامي الأكبر (دار الإسلام) وعلى المسلم أن يستشعر ذلك، وهذا هو طريق وحدة المسلمين ووحدة العالم الإسلامي. وأيضًا فهو مطالب بأن يكون عضوًا فاعلاً في المجتمع الدولي، ويعمل على نشر الخير والسلام فيه: "هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" (هود: ٦١).

٣- أن المواطن في الإسلام عليه واجبات وله حقوق، وأن الإسلام قد نظر نظرة منصفة وعملية حين قدم الواجبات على الحقوق؛ وذلك أن تقديم الواجبات هو في ذاته بذل للحقوق كما أنه خروج من الأثرة والأنانية، والأهم من ذلك أن مصدر الحقوق والواجبات إنما تستمد من العقيدة.

٤- أن المواطنة في الإسلام تقوم على أسس متينة لا تتغير ولا تتبدل؛ ذلك أنها إما أسس عقائدية فكرية، وإما خلقية عملية، وهي مستنبطة من الأصول الإسلامية، مما يعطي المواطنة القوة من ناحية، ويجعلها ملتزمة بالمبادئ والقيم من ناحية ثانية.

٥- من أهم الأسس التي تقوم عليها فكرة المواطنة في الإسلام هو أساس

وحدة الإنسانية، وأن الناس كلهم من أصل واحد واحد وما هذا الاختلاف إلا ليجتمع الناس وليتعارفوا فيما بينهم "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"، وأساس الكرامة الإنسانية، وأن الإنسان مهما كان أصله أو دينه أو جنسه، فهو كائن مكرم لا يجوز المساس به أو التهوين من شأنه.

قائمة المراجع

١- ابن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: د. محمد جميل غازي، القاهرة، مطبعة المدني.

٢- ابن حزم، المحلي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

٣- ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء الكتب العربية.

٤- أحمد الخولي، نظرية الحق بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي، الأولى، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٣.

٥- أحمد رشاد طاحون، حرية العقيدة في الشريعة الإسلامية، الأولى، القاهرة، إيتراك للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

٦- أحمد شوقي الفنجري، الحرية السياسة في الإسلام، الثانية، الكويت، دار القلم، ١٩٨٣م.

٧- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، الأولى، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٨- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت، دار المعرفة.

٩- الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الثانية، تونس، الشركة التونسية للتوزيع بالجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

١٠- عبد الحكيم العيلي، الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام، دار الفكر العربي، ١٩٨٣م.

١١- عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠١٠م.

١٢- عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بغداد، مكتبة القدس؛ بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.

١٣- عبد الواحد محمد الفار، قانون حقوق الإنسان في الفكر الوضعي والشريعة الإسلامية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩١م.

١٤- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.

١٥- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.

١٦- مالك بن أنس، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م.

١٧- الماوردي، الأحكام السلطانية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.

١٨- محمد أحمد مفتي، سامي صالح الوكيل، النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية، الأولى، قطر، كتاب الأمة، ع (٢٥).

١٩- محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، الثالثة، القاهرة، دار الكتب الإسلامية.

٢٠- محمد رأفت عثمان، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية، الرابعة، القاهرة، دار الضياء، ١٩٩١م.

٢١- محمد سليم العوا: في النظام السياسي في الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩م.

٢٢- محمد صالح الصالح، حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في

المملكة العربية السعودية الأولى، الرياض، ٢٠٠٢م.

٢٣- محمد عمارة، الإسلام والأمن الاجتماعي، الأولى، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨م.

٢٤- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث.

٢٥- مصطفى السباعي، اشتراكية الإسلام، الثانية، دمشق.

٢٦- معجب بن معدي الحويقل، حقوق الإنسان والإجراءات الأمنية، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠٦م.

٢٧- منير حميد البياتي، حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون، قطر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الأولى، كتاب الأمة، ع (٨٨)، ربيع الأول، ١٤٢٣هـ.

٢٨- ناصر بن محمد البقمي، حقوق الإنسان المدنية في النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الرياض، جامعة نايف للعلوم الأمنية، ٢٠٠٦م.

٢٩- نصر فريد واصل، آداب العلاقات الإنسانية في الإسلام، القاهرة، المكتبة التوفيقية.

٣٠- وهبة الزحيلي، حق الحرية في العالم، الأولى، دمشق، دار الفكر، بيروت، دار الفكر المعاصر.

٣١- يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الرابعة، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م.

٣٢- يوسف القرضاوي، في فقه الأقليات المسلمة، الثالثة، القاهرة، درا الشروق، ٢٠٠٧م.

فهرس المحتويات

مقدمة..... ١
المبحث الأول: وحدة الإنسانية..... ١١
المطلب الأول: وحدة الأصل الإنساني..... ١٣
المطلب الثاني: وحدة الأصل الفطري والغريزي..... ١٥
المطلب الثالث: وحدة الهدف والمصير..... ١٧
المطلب الرابع: وحدة العقيدة..... ١٨
المطلب الخامس: الوحدة الإسلامية سبيل المساواة في الحقوق والواجبات.... ٢٠
المبحث الثاني: التعاون الإنساني والصلة الإنسانية ٢٢
المطلب الأول: التعاون الإنساني قرين الوحدة الإنسانية..... ٢٢
المطلب الثاني: التعاون الإنساني في ظل الوطن الواحد..... ٢٥
المبحث الثالث: تكريم الإسلام للإنسان ٢٧
المطلب الأول: المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية ٢٨
المطلب الثاني: الكرامة الإنسانية وأثرها على المواطنة..... ٣٠
المبحث الرابع: إقرار سنة الاختلاف بين الناس..... ٣٢
المطلب الأول: الاختلاف سنة حتمية ٣٢
المطلب الثاني: الاختلاف أساس المواطنة ٣٤
المبحث الخامس: المساواة بين الناس ٣٦
المطلب الأول: مفهوم المساواة..... ٣٦
المطلب الثاني: المساواة في الإسلام..... ٣٨
المطلب الثالث: المساواة بين المسلمين وغير المسلمين..... ٤١
المبحث السادس: العدل الإنساني..... ٤٣
المطلب الأول: مفهوم العدل في الإسلام..... ٤٣

المطلب الثاني: مجالات العدل وتحقيق العدالة في الإسلام ٤٧
المطلب الثالث: العدل أساس المواطنة..... ٥٣
المبحث السابع: عالمية رسالة الإسلام..... ٥٥
المبحث الثامن: السماحة الإسلامية..... ٥٨
المطلب الأول: مفهوم السماحة في الإسلام ٥٨
المطلب الثاني: التسامح الديني ومظاهره..... ٦٠
المطلب الثالث: نماذج تطبيقية من التسامح الديني ٦٤
نتائج البحث..... ٦٨
قائمة المراجع..... ٧٠
فهرس المحتويات..... ٧٣